

ألف ليلة وليلة

فرغت في هذه الأيام من تصفّح كتاب فرنسي طبع في بيروت سنة ١٩٤٩ طبعه المعهد الفرنسي بدمشق ، مؤلف الكتاب المشرق « نيكيتا أليفس » وموضوعه : ألف ليلة وليلة ، ونظراً الى شهرته المستفيضة رأيت أن أخصّ في هذا المقال بعض كلام المؤلف على أصل ألف ليلة وليلة وعلى أسباب شهرته في أوروبا مستغنياً عن الإشارة إلى فصول ثمانية من الكتاب .

ما هو أصل ألف ليلة وليلة ؟ لم يُبحث عن هذا الأصل بحسب رأي المؤلف « أليفس » إلا في أوائل القرن التاسع عشر ، فقد كثر الجدل في أصل الكتاب وتاريخه ، ولست أريد أن أضيع في طول الجدل في هذا الباب ، وإنما أجتزئ ببعض إشارات ليس إلاّ دون الخوض في ذكر الأسماء الأعجمية .

ذهب فريق الى أن أسلوب ألف ليلة وليلة وصيغة الكتاب إنما هما قريبان من اللغة العامّة ، وأن الكتاب ألفه رجل عربي من سورية لرجال يوعنون في تعلّم العربية .

وشكّ آخرون في أن يكون الكتاب تأليف رجل واحد ، والسبب في هذا الشكّ كثرة الاختلافات في القصص وتوزيعها على ليالٍ متفاوتة ،

صاحب هذا الرأي المستشرق الفرنسي « سامي » الذي نقد نصاً جاء في مروج الذهب للمسعودي وهذا هو النص :

« وان سبيلها (أي الأخبار) سبيل الكتب المنقولة إلينا والمتروجة لنا من الفارسية والهندية والرومية ، سبيل تأليفها ما ذكرنا مثل كتاب : هزار افسانه ، وتفسير ذلك من الفارسية الى العربية ألف خرافة ، والخرافة بالفارسية يقال لها : افسانه ، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما : شيرازاد ودينازاد ، ومثل كتاب : فرزة وسياس وما فيها من أخبار ملوك الهند والوزراء ، ومثل كتاب : السندباد ، وغيرها من الكتب في هذا المعنى . »

قالت فئة بعد مطالعة هذا النص إن أصل ألف ليلة وليلة إنما هو اللغة الهندية ، وخطر لغيرهم أن قصص ألف ليلة وليلة إنما انتقلت من الفرس الى العرب .

وزعم آخرون أن كثيراً من القصص قد أضافتها العرب ، وأن المترجم العربي قد اطّرح من نص القصص كل ما يدل على أصل مصدرها .

والمسعودي الذي تقدمت الإشارة الى نصّه قد ردّوا عليه فقالوا قد يجوز أن يكون كلامه قد نسب إليه وهو لم يقله .

واندفع مستشرق آخر فخلص الى نتيجة تخالف هذه النتيجة ، فاستدلّ بنص المسعودي على أن أصل ألف ليلة وليلة قد يكون فارسياً ، وربما كان هندياً ، وليس بعيد أن يكون الكتاب قد ترجم على زمن المنصور ، أي قبل هارون الرشيد بثلاثين سنة ، وعلى ما به ، فأصل ألف ليلة وليلة يبحث عنه في الفرس وربما في الهند ، ويزيد صاحب هذا الرأي على ذلك قوله إنه على

مرّ العصور قد أضافوا الى ألف ليلة وليلة قصصاً من بغداد ثم من القاهرة على أيام الفاطميين والأيوبيين ، كما أضيفت الى الكتاب قصص تتصل بالأمويين والعباسيين وقصص لها طابع مصري محض ، وعلى هذا فان كتاب ألف ليلة وليلة ليس من عمل كاتب واحد .

وبعد أن مرّ على هذا الشكل من الجدال سنتان قام المستشرق الفرنسي « سامي » ففتح باب الجدال مرّة ثانية وقال إن الكتاب كتب في الأصل في سورية باللغة العامّة وأن الكاتب ترك كتابه غير كامل وإن الناسخين قد تولوا إكمالها بما باقحام قصص معروفة فيه لم تكن من أصل الكتاب ، وإمّا بتأليف قصص من عند أنفسهم ، وعن هذا نشأ الاختلاف الكثير في نسخ القصص ، وقد أقحمت القصص في عصور مختلفة وربما في أقطار مختلفة ، ولا سيما في مصر ، وعلى هذا فلا يكون الكتاب عريقاً في القدم ، وما دام لم يأت فيه ذكر التبغ والقهوة فقد يمكننا أن نجعل تاريخ تأليفه من منتصف القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر ، فعلى هذا ينفي المستشرق الفرنسي « سامي » أصل ألف ليلة وليلة الهندي أو الفارسي ، ويرى في هذا الكتاب عملاً عربياً خالصاً تستفيض فيه الروح الإسلامية والنظرة الإسلامية ، وتأتي فيه الإشارة الى القرآن والى سليمان وهارون .

ثم دخل مستشرقون آخرون في هذا الجدال ، فأرأوا في ألف ليلة وليلة ثلاثة أصناف من القصص بحسب أصلها العربي والفارسي والهندي ، فالموضوع إنما هو هندي وإنما المسلمون اطرحوا من الكتاب كل ما يدل على تعدد الآلهة دون أن يطرحوا منه أنصاف الآلهة .

وبعد أن مرّت سنة على وفاة المستشرق « سامي » اهتدى مستشرق آخر في الأدب العربي الى نص يثبت أن أصل ألف ليلة وليلة إنما هو فارسي ،

فان قول المسعودي في اصل الكتاب قد وضح توضيحاً أكمل في الفهرست لابن النديم ونظراً الى طول النص اقتصر على ذكر بعضه :

« قال محمد بن إسحق : أول من صنّف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان الفرس الأول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الأشعانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ثم زاد ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية ونقلته العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء فينبؤوه وتمنّوه ، وصنّفوا في معناه ما يشبهه ... »

وبعد هذا النص جاء المؤلف « أليسف » بنص آخر من كتاب الخطط للمقريزي يثبت أن كتاب ألف ليلة وليلة كان معروفاً بهذا الاسم في القاهرة على أيام الفاطميين :

« قال ابن سعيد في كتاب المحلى بالأشعار ، قال القرطبي في تاريخه تذاكر الناس في حديث البدوية وابن مياح من بني عمها وما يتعلق بذلك من ذكر الأمر بأحكام الله حتى صارت رواياتهم في هذا الشأن كأحاديث البطل وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك . »

وبعد هذا الجدل الطويل تعرّض المؤلف لموضوع عنوان كتاب ألف ليلة وليلة ولذا ذكر مصدر هذا العنوان ، وليس من الضروري الإفاضة في ذكر اصل العنوان فقد قالوا إن عنوان الكتاب : هزار افسانه ترجم في البدء بعنوان الخرافة ثم بعنوان ألف ليلة ثم أخيراً بعنوان الف ليلة وليلة ، ولماذا هذا التغيّر ، فالمؤلف « أليسف » لم يهتد الى السبب في ذلك ، وقد كثرت الأقاويل في هذا المعنى مما قد يُستغنى عن الخوض فيه .

وقد ختم المؤلف فصله هذا بالكلام على لغة ألف ليلة وليلة وعلى أسلوب

الكتاب ، ورأى ان الصلة الوحيدة بين القصة وإنما هو الإسلام واللغة العربية ، فالقصة كتبها عليها طابع إسلامي ، وقد كتبت بلغة هي اقرب إلى اللغة العامة منها إلى لغة الأدب ، والمقاطع التي يظهر عليها أثر الجهد إنما هي مقاطع الوصف ، مثل وصف البنات والقصور والبساتين والحروب والحوار والصلوات والمواعظ والأمثال . وقد تكثر في الكتاب الاستشهادات بالشعر على انه يمكن الاستغناء عن الشعر دون الإخلال بالقصة ، والشعر ليس من نظم أصحاب القصة وإنما هو من شعر شعراء معروفين .

لابأس بعد هذا التلخيص الذي قد يجوز أني تصرفت فيه بعض التصرف من حيث الصيغة ، أمّا المعنى فأرجو أن لا يقع مني تصرف فيه ، لابأس بعد هذا كانه بأن نبحت عن شهرة ألف ليلة وليلة على نحو ما فصله المؤلف «أليسف» .

ماهي أسباب هذه الشهرة في أوروبا ؟

ظهر الجزء الأول من كتاب ألف ليلة وليلة في أوروبا سنة ١٧٠٤ ومن سنة ١٧٠٦ انتشرت في جماهير الناس سبعة أجزاء من الكتاب ، ثم ظهر على التوالي سنة ١٧٠٩ الجزء الثامن ، وسنة ١٧١٢ الجزء التاسع ، والجزء العاشر ، وسنة ١٧١٧ الجزء الحادي عشر والجزء الثاني عشر ، وهذه هي المرة الأولى التي اتصلت فيها أوروبا بمعرفة القصة الشرقية ، فما كاد الكتاب يخرج من المطابع حتى توالى طبعاته في فرنسا وهولندا ، وتوالى ترجماته في انكلترا وألمانيا .

فما هو السبب في هذا النجاح السريع ؟

لاشك في أن الشرق لم يكن قطراً مجهولاً ، ولكن صورته الراسخة في الأذهان كانت مشوهة ، فمن جهة كانت فتانة بما توحىه من الأحلام والخيال ،

ومن جهة ثانية كانت مخيفة بما توحيه من خوف الأتراك ، فما هي مصادر المعلومات التي كانت الجماهير تحصل عليها في خلال العصور .

كان عدد المسافرين إلى الشرق حتى عصر الصليبيين قليلاً ، كان المسافرون حجاً ، ومن عهد الصليبيين ازداد عدد رجال السياسة والتجارة ، فكثير عدد الرهبان الجواسيس من جهة (هذا كلام المؤلف نفسه) ومن جهة ثانية كثير عدد التجار ، ولم يفض المسافرون إلى أهل بلادهم إلا بمعلومات ناقصة ، فالفتنة الأولى ، أي الرهبان غلبت عليهم أهواء السياسة والدين ، والفتنة الثانية غلبت عليهم نشاط التجارة ، وفضلاً عن ذلك كان العدد قليلاً ، ولم يكن تطلع الناس إلى معرفة ما يأتي من الشرق إلا ضعيفاً ، كانوا يجهاون بوجه التقريب كل شيء من أخلاق المساميين ، وقعت الحروب بين الشرق والغرب ولكن الغرب لم يعن بفهم حياة عدوهم العقلية والاجتماعية أو المادية ، وعلى هذا لم ترسخ في أذهانهم إلا صورة غامضة من الشرق ، صورة غارقة في ظلمات الجهل .

إلا أنه من منتصف القرن السادس عشر حتى آخر القرن الثامن عشر كثير سفر رجال أوروبا كثيرة بالغة ، فكانوا يعدون بالآلاف من كل أنحاء أوروبا ، فبعد عصور العداوة قامت الصلات التي تسهل السفر وسنحت الفرص للسفارات الدائمة والقناصل وجاليات التجار والبعثات الاقتصادية والعلمية ، وإني لأكتفي بهذا القدر من التلخيص ، الذي يوضح صلة الغرب بالشرق ، كيف كانت هذه الصلة بينها ، وإلى شيء صارت .

بعدها كلّه أنتقل إلى الكلام على شهرة ألف ليلة وليلة في أوروبا . لما ظهر الجزء الأول من الكتاب وذلك سنة ١٧٠٤ كان الأدب في أزمة شديدة ، فكانت المعركة بين القديم والحديث سنة ١٦٨٣ - ١٧١٩ فقد ملّ الناس من

الجدال في أدب اللاتين واليونان ، ف جاء كتاب ألف ليلة وليلة بعنصر جديد للمؤلفين المولعين بالقصص ، فوقف الحواطر على الخيال وعلى الصور التي يرتبط بها الأمر الواقع بالأمر الخارق ، كما وقفت على وصف قصور الشرق وعلى المغامرات ، لم يكن الشرق في نظر الأوروبي إلا هيكلًا فنفتح الروح في هذا الهيكل بعد ألف ليلة وليلة ، فأصبح هذا الأوروبي يستطيع أن يرى في القصص الحديثة عادات الشرقيين وأخلاقهم واحتفالاتهم الدينية ، فقد ظهر الشرق كله في هذه القصص ، ظهر كما هو ، من الملك إلى السوق ، فلم تبق حاجة بأهل أوروبا إلى رؤية الشرقيين في بلادهم ، فيمكن القارئ أن يتمتع من لذة مشاهدة رجال الشرق وهم يعملون وهم يتكلمون . هذا ما أصبح يتمتع منه جماهير الغرب الذين لم يعرض عليهم أدب عصرهم إلا رجل البلاد كلها ، إلا الرجل العام لا الرجل الخاص ، لقد كان أدب القرن السابع عشر يشتمل على تنازع الحب والواجب ، كان هذا الأدب يتعمق في دراسة مواطن النفس ، حتى سم القارئ فلسفة « ديكارت » المبنية على العقل وأخذ خياله يسرح في آفاق السراي والحرم والعييد مما جاء وصفه في ألف ليلة وليلة ، وتعلق هذا الخيال بهذه المشاهد وبهذه الأسماء الحديثة : شهرزاد ، قمر الزمان ، نور الدين ، هارون الرشيد .

ولا حاجة لي بعدما تقدم من التلخيص إلى التعرض لما أوحته قصص ألف ليلة وليلة إلى الكتّاب من عمل كتب بمائة لها .
والخلاصة كان كتاب ألف ليلة وليلة في نظر المؤلف « أليفس » حقلاً مديداً ، مختلف النبات ، نجد فيه أروع الأزاهير الى جنب أردأ التعاشيب ، ونشم فيه أطيب رائحة الى جنب أخبثها .

شفيق جبري